
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

البهجة المطمئنة

د. هبة رءوف عزت
أكاديمية مصرية

تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية في أطوارها وسياقاتها المتنوعة تعاملا رفيقا، وجعل توازنها وعافيتها من أهم المقاصد والغايات، لأن ذلك سبيلها لحسن القيام بالتكليف والعيش الطيب الذي ارتضاه الله لعباده.

وليست البهجة ترفا حين تشتد المحن، فتحصيل السعادة غاية كل إنسان، لكن المؤمن ينشد سعادة الدنيا والآخرة، فهو في لحظات السعادة لا يغتر بالفرح، وهو عند نقصانها مع تقلب أحوال العيش من الصابرين الشاكرين.

وتستوقفنا عند قراءة كتاب الله تلك الرابطة بين البهجة والكون وأصل النشأة والبعث والآخرة، فنجد البهجة تقترن بالنبات والزرع: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ (النمل:٦٠ و٦١).

وفي موضع ثان نجد هذه النقلة بين الخلق والبعث وآيات الله في الكون:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ (الحج:٥).

وفي موضع آخر يتكرر ذلك: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)﴾ (ق:٧).

وقد نظرت في سبب ارتباط البهجة التي يشعر بها الإنسان حين ينظر إلى النبات، فوجدت أن بيننا وبينه رابطة وصلة قويتين، فالله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)﴾ (نوح:١٧ و١٨).

ويصف مريم البتول وصفا مشابها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران:٣٧).

ووصف المؤمنين بالزرع: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح:٢٩).

فهناك رباط بين الإنسان والنبات يخلق هذه الوشيجة التي تضفي على النفس البهجة حين يجد نفسه في وسط اللون الأخضر، الذي جعله القرآن من أوصاف الجمال في الدنيا والآخرة.

البهجة إذن ليست الفرحة التي تقترن بزمن أو مناسبة كعيد ونحوه، بل هي انشراح النفس حين تنفتح على كون الله، ووعيها بأنها كالزرع تذبل وتموت إن لم ترتو بماء العبادة، وأن كل زرع يذبل، وتصبح صورة الماء الذي يحيي الزرع كالنعمة التي يحيي الله بها القلب، لذلك يقترن الماء بالبهجة والنبات، والغيث بالرحمة.

وتتعدد في كتاب الله الآيات التي تربط بين الماء والزرع والإحياء والبعث.

وفي سنة رسول الله ﷺ نجد هذا المعنى الباطن للبهجة المقترن بالتأمل والنظر، والذي يقترن فيه التفكر باليقين والتأمل بالعبادة والخشوع.

ولأن النفس لا تطيق غياب البهجة عنها، ذلك الشعور بالجمال وتلك الرؤية لآثار نعمة الله، نجد الآيات القرآنية تترفق بقلب الرسول ومن ورائه أمة الدعوة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ (الكهف: ٦ و٧).

فمصدر البهجة للمؤمن هو مصدر الابتلاء للكافر.

ويقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ (فاطر:٨).

البهجة إذن زاد للنفس الطيبة، وهي من طيب الحياة التي ارتضاها الله لأهل الإيمان، لا تصرفهم عن العبادة، ولا تنسيهم الآخرة، وتربطهم بالكون.

لذلك، يمكننا أن نصف البهجة في الإسلام بأنها «البهجة المطمئنة»، ليست البهجة الصاخبة، بل البهجة السارية، التي تصاحبها السكينة ويرويها اليقين.

تلك الأحوال هي التي تعين تلك النفس المطمئنة على مواجهة الشدائد والصبر على الكدح والكبد، فهي بهجة غير مؤجلة ولا منسية، بل تسري في حياة المؤمن كما يجري الماء، وتورث قلبه اخضرارا وروحه عافية وقلبه سلامة، وتورثه تلك السعادة التي ينشدها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ (هود:١٠٨).

